"الأيديولوجيا فى موت الأيديولوجيا

دراسة نقدية "من خلال نماذج ممثلة"

آمال عبد الرازق محمد النجدى

ماجستير فى فلسفة السياسة

كلية الآداب-جامعة الإسكندرية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تمهيد:

يمكن القول إن مصطلح أيديولوجيا[١] ظهر لأول مرة فى التاريخ أثناء الثورة الفرنسية،حيث كان جو هذه الثورة مليئاً بالمناظرات السياسية والفلسفية ،ولكن من خلال النظرة المتأنية للمصطلح نجد أن عمره يمتد إلى أكثر من ذلك بكثير، فالأيديولوجيا عبارة عن مجموعة من الأفكار التى تؤمن بها مجموعة من الناس لأنها تعبر عن رؤيتهم لأنظمة الدولة والسياسة المعمول بها فى الدولة .

والجدير بالذكر أن الدول شديدة التعصب لأيديولوجيتها تصعد وتتقدم بسرعة جداً ،ثم تتساقط وتنهار بهذه السرعة نفسها ،فأشد خطراً على الدول هو تعصبها لأيديولوجيتها وعنصريتها المفرطة،كما أن عدد الأيديولوجيات فى العالم يقدر بعشرات الأيديولوجيات،وعلى سبيل المثال لا الحصر"الأيديولوجيا الصهيونية، ،والأيديولوجيا القومية،والأيديولوجيا النازية....الخ ،ولكن الأيديولوجيات الأكثر انتشاراً هما الأيديولوجيتان الرأسمالية والنازية،بالإضافة لأيديولوجيات العالم العربى والإسلامى بسبب التدخل الأجنبى فى الدول العربية، والتى تكمن فى أيديولوجيا القومية العربية ،والأيديولوجيا الإسلامية .

عندئذ وبمرور الوقت انقسمت القومية العربية لناصرية ،وبعثية،،وقومية ديمقراطية،وانقسمت الأيديولوجيا الإسلامية إلى سلفية ،وحركية ،وجهادية ،وأنصار سنة،وإخوانية،بالإضافة للشيعة ومرجعيتها .

وعلى الرغم من أهمية وجود الأيديولوجيا فى حياتنا ،إلا أن هناك مشكلة للأيديولوجيات تكمن فى أنها ثابتة، وأن الزمن فى تغير مستمر،حيث إنها تبدو للوهلة الأولى مبهرة جداً،وكلنا لا نلبث وأن نشعر وكأنها لأفراد غيرنا ولزمن غير زماننا ٠

بالإضافة إلى مشكلة أخرى للأيديولوجيا تكمن فى الولاء الشديد لها الذى قد يتجاوز المصلحة العامة للوطن،وخير مثال من التاريخ هو الدولة الرومانية الوثنيةالتى اضطهدت المسيحية وبعدها الوثنين عندما تحولت للمسيحية ،حتى وصل الأمر لمذابح جماعية بين المسيحيين المعتنقين لمذهب آخر غير مذهب الإمبراطور،وعلى الرغم من أن هذه

---

[١] مصطلح استخدمه لأول مره فى التاريخ ديستان دى تراسى ،وكان يعنى بهذا المصطلح علماً للأفكار لتحديد صحتها وأخطائها ،مستخدما نظرية نقدية(نظرية الشك الديكارتى) لتتبع نمو الفكر وتشعبه،وسرعان ما انتشر استخدام هذا المصطلح إلى العديد من المعانى المختلفة،(انظريسرى دعبس:معجم المصطلحات السياسية،مادة الأيديولوجيا،البيطاش سنتر للنشر والتوزيع،الإسكندرية،٢٠٠٩،ص ٢٠٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الوحشية لم تكن موجـــودة حـــديثاً، إلا أن مـــشكلة الاســـتقطاب الأيـــديولوجى مازالـــت موجودة"،وهذا ماعانى منه العالم كله حتى نهاية الثمانينيات فيما يعرف بالحرب البـــاردة بين المعسكر الرأسمالى الأوروبى والمعسكر الشيوعى فى أوروبا الشرقية ،والذى انتهـــى إلى معاناة الناس، ومن المعروف أن النظام الأشد قمعاً هو الذى يسقط أسرع، فكـــان مـــن الطبيعى سقوط النظام الشيوعى وصعود نظام آخر، وكأن فى موت الأيديولوجيا الشيوعية تولدأيديولوجيا أخرى .. ومن ثم فالأيديولوجيا فى موت الأيديولوجيا.

- **إشكالية البحث وتساؤلاته:**

تكمن إشكالية البحث فى محاولة الإجابة عن التساؤلات الآتية:

س١: هل يمكن للأيديولوجيا أن تموت ؟أو هل الأيديولوجيا ماتت بالفعل كما قـــال دنيـــال بيل؟

س٢: هل تعبر الأيديولوجيا عن الوعى الذى تتم صياغته تعبيراً عن المصالح سواء كانت حقيقية أم وهمية ،ومن ثم لا يمكن أن تموت؟

س٣: ما أهم سمات "نموذج القومية"بوصفه أيديولوجيا قائمة وباقية فى العـــالمين العربـــى والغربى؟

أولاً: مفهوم الأيديولوجيا

قبل الخوض فى موضوع البحث لابد من التعـــرف علـــى معنـــى الأيـــديولوجيا ،للوقوف على إمكانية موتها من عدمه .

قد يستخدم الجميع مفكرون كانوا أم سياسيون أم غيـــر ذلـــك الأفكـــار والآراء السياسية عندما يعبرون عن آرائهم أو عندما يصرحون بما فى أذهانهم ،عندئذ ترد علـــى آذاننا مصطلحات كالحرية ،والديمقراطية،والعدالة، والمساواة،وغيرها،ويصفون أنفـــسهم بمصطلحات مثل محافظ ،ليبرالى،علمانى،شيوعى،اشتراكى.[١]

وممـــا هـــو جـــدير بالـــذكر أن كلمـــة أيـــديولوجيا دخيلـــة علـــى كـــل اللغـــات الحية،فالأيديولوجيا تعنى لغوياً بالرجوع لأصلها الفرنسى "علم الأفكار"،ولكن سرعان مـــا فقدت الأيديولوجيا معناها ،فقد استعارها الكثيرون وضمنها معان أخرى ،وعندما رجعـــت

(١) أندرو هيود:مدخل إلى الأيديولوجيا السياسية ،ترجمة محمد صفار،المركز القومى للترجمة،القاهرة،سلـــسلة العلوم الاجتماعية للباحثين،العدد٢٠١٢،١٨٣٠،ص٩

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى فرنسا أصبحت دخيلة حتى فى لغتها الأصلية،عندئذ عجز العديد من الكتاب العرب عن ترجمتها وصياغتها صياغة صحيحة ،ورغم ظهور العديد من المصطلحات التى تحمل فى طياتها معنى الأيديولوجيا،إلا أننا لم نجد حتى اليوم مصطلح يلعب دوراً محوريا بديلاً عن الأيديولوجيا. (٢)

ولكن ماذا نعنى بهذه العبارات؟ وهل نعنيها كما هى أم أن هناك خلفيات غير واضحة نقصدها عندما نطلق مثل هذه الألفاظ؟ عندئذ تظهر الأفكار ودورها فى السياسة بحثاً وراء مفهوم الأيديولوجيا وطبيعتها،كما أنه يجدر الإشارة إلى أن المفكرين لا يسلمون بضرورة الأفكار،وأهمية هذه الأيديولوجيات حيث جرى التفكير فيها فى وقت ما على أنها مجرد صراع على السلطة.(٣)

يشير مصطلح الأيديولوجيا إلى مجموعة من الأفكار التى يحاول من خلالها ربط الفكر العام . باعتبارها محاولة لتشكيل اعتقاد الناس وبالتالى كيف يتصرفون. كما يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى مجموعة شاملة من الأفكار التى توضح وتقيم الأوضاع الاجتماعية,والتى تساعد الناس على فهم حقوقهم فى المجتمع, ويقدم برنامج العمل الاجتماعى والسياسى الملائم لهم .(٤)

وتتمثل مهمة الأيديولوجيا فى تحديد بعض الأبعاد الاجتماعية للأفكار واظهار وتطوير واستخدام الأيديولوجيات فى المقام الأول. كما أننا نحتاج إلى دراسة كيفية توظيف الأيديولوجيات اجتماعيا وسياسيا ،فضلاً عن النظر للأيديولوجيا بوصفها عنصرا متكاملا فى الإطار الجديد المتعدد التخصصات, سواء فى الدراسات النظرية أم التجريبية.(٥)

ومن ثم يمكن تعريف الأيديولوجيا من خلال ما يلى:

* تعريف الأيديولوجيا كما جاء في معجم العلوم الاجتماعية والفلسفية على أنها مجمل التصورات، والأفكار، والمعتقدات، وطرق التفكير لمجموعة سواء كانت أمة، أو

---

(٢) عبد الله العروى :مفهوم الأيديولوجيا،المركز الثقافى العربى ،بيروت،١٩٩٣،ص٩-١٢.

(٣) أندرو هيود:المرجع السابق نفسه،ص١٠.

(٤)DANIEL I. O: POLITICAL IDEOLOGIES AND THE DEMOCRATIC IDEAL'NEILL, RICHARD DAGGER, *University of Richmond* ,pp5-6.

(٥)Teun A. van Dijk: Ideology A Multidisciplinary Approach, S AGE Publications London • Thousand Oaks • New Delhi ,1998 ,p.p 135-136.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

طبقة، أو فئة اجتماعية، أو طائفة دينية، أو حزب سياسي، وتكون الأيــديولوجيات عــادة مشروطة ومحددة بالظروف المناخية والعادات.(٦)

وجاء فى قاموس إلياس العصري١٩٨٥م كلمة أيديولوجياIdeology ، بمعني : فن البحث في الأفكار والتصورات، بالإضافة لمفهوم الأيديولوجيا في الأدبيات الماركــسية.(٧) وفي مؤلفات ماركس وانجلز يرد تعبير الأيديولوجيا بالمعاني الآتية:

- في مؤلف "الأيديولوجيا الألمانية" لماركس وانجلز يرد مصطلح الأيديولوجيا عنــد الحديث عن البناء العلوي الأيديولوجي، بأنها تقلب الأشياء رأساً علــي عقــب،أى أنها بمثابة (أوهام)،أو هى (الصور الكاذبة التي يرسمها الناس، لتعبــر عــن أنفسهم)،أو (آراء تبرر الأوضاع الاجتماعية الخاصة).(مذهب).(٨)
- وفي "بؤس الفلسفة لماركس" و"البيان الشيوعي" لماركس وانجلز يرد مــصطلح الأيديولوجيا بالمعاني التالية:

كل العلوم الإنسانية وخاصة العلوم الاجتماعية، بمــا فيهــا الاقتــصاد الــسياسي والتاريخ،أو هى برامج وتصريحات الأحزاب الــسياسية المختلفــة والتــصورات والآراء وردود الأفعال السيكولوجية، و الأماني المعبرة عن مختلف الطبقات الاجتماعية.(٩)

ومما هو جدير بالذكر أن السياسيين اتفقوا على أن الأفكار السياسية هــى مجــرد دعاية, عبارات أو شعارات تهدف الى كسب أصوات او جذب التأييد الشعبى. ولذلك فــإن الأفكار والأيديولوجيات مجرد "واجهة" لإخفاء حقائق أعمق من الحياة السياسية.(١٠)

---

(٦) جلال الدين سعيد:معجم العلوم الاجتماعية والفلسفية،مادة الأيديولوجيا، نيويورك ،١٩٤٤م، ص ١٤٩.
(٧) الياس انطوان:قاموس الياس ،دار الجليل،بيروت،١٩٧٩.
(٨) كارل ماركس :الأيديولوجيا الألمانية ،ترجمة فؤاد أيوب،دار دمشق،١٩٦٤،ص ص١١-١٢.
(٩) كارل بوبر:بؤس الأيديولوجيا،ترجمة عبد الحميد صبره،دار الساقى،القاهرة،١٩٩٢،ص٥-٦.
(١٠)Andrew Heywood: Polittal Ideol ogi es ... An Introduction, 3rd editon, pp1- 2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثانياً: نهاية الأيديولوجيا:

"لا تأتى الرياح بما تشتهى سفينة دانيال بيل[٢] "

فمنذ أن نشر دانيال بيل كتابه"نهايةالأيديولوجيا" عام ١٩٦١م،وعبارة موت الأيديولوجيا أو نهاية الأيديولوجيا قد أصبحت نوعاً من الموضة ،وذلك مثل عبارات"موت المؤلف"،أو "موت الإنسان" التى قال بها البنيويون[٣]،وعندما كان بيل يتحدث عن موت الأيديولوجيا، كانت الصورة التى فى ذهنه لا تتجاوز كثيراً النازية والفاشية والشيوعية، أى تلك الأيديولوجيات الكبرى بصفتها المعبر الأمثل عما يعنيه بالأيديولوجيا.

ولكن يبدو أن من يشنون هجوماً على الأيديولوجيا غارقون فى الأيديولوجيا حتى آذانهم، فالأيديولوجيا هى الوعى الذى تتم صياغته تعبيراً عن المصالح سواء كانت حقيقية أم وهمية ، وهنا يكون الوعى مطابقاً أو زائفاً ،لكن فى كل الأحوال لا يخرج عن كونه أيديولوجيا،ولهذا فحين تُرفض الإشتراكية فهذه أيديولوجيا ،لأن رافضيها لهم مصالح فى نظام آخر ،قد يكون الليبرالية أو الرأسمالية[٤] ،مما يعبر فى الوقت نفسه عن الأيديولوجيا،بحيث يمكن القول إن موت الأيديولوجيا إنما هو موت للأنظمة التى فرضت على الشعوب.(١١)

فإن كافة المتشعبات التى نمت من أشكال الوعى الاجتماعى فى مراحل معينة من مراحل المجتمعات البشرية، كل هذا مهد الطريق لخلق سيكولوجيات جديدة،ومن ثم ظهور أيديولوجيات جديدة بالإضافة للأيديولوجيات القائمة بالفعل فى المجتمعات،لاسيما المتمثلة فى مصالح الطبقات الاجتماعية.(١٢)

---

[٢] عالم اجتماع وأستاذ فخرى فى جامعة هارفارد، ومدير مؤسسة Suntory ومدرس في الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم ولد عام ١٩١٩ وتوفى عام ٢٠١١.(انظر Waters:Daniel Bell,Rautedge Taylar-french graup pressU.K,1996,p.13.

[٣] ينسب الغربيون البنيوية Structuralism إلى بنية Structure ، ويرون أنها مشتقة من الأصل اللاتيني Stuere الذي يعني البناء أو الطريقة التي يقام بها مبنى معين(انظرصلاح فضل : نظرية البنائية في النقد الأدبي ، ط١ ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٩٨م، ص ١٢٠.

[٤] نظام اقتصادى يتميز بالملكية الخاصة لوسائل الإنتاج والتوزيع،كما يتميز بالمنافسة الحرة وبسعى الوحدات الإنتاجية للربح،وقد تطورت الرأسمالية تاريخيا واتخذت أشكالاً متنوعة كالرأسمالية التجارية والمالية والصناعية،(انظريسرى دعبس:معجم المصطلحات السياسية،ص ٥٠.

(١١) عماد أحمد : مستقبل الايديولوجيا واليوتوبيا في الفكر السياسي الغربي الحديث،مجلة العلوم السياسية،العراق،العدد٤٣،ص٣٥.

(١٢) عماد أحمد:المرجع السابق نفسه،ص٤٤.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عندئذ أخذ مفهوم الأيديولوجيا طابعاً جديداً،ولما كان شائعاً إخفاق الأيديولوجيا النازية[٤] والفاشية[٥] فى الغرب المعاصر بعد الحرب العالمية الثانية،جاءت الدعوة إلى موت الأيديولوجيا ،وتجددت فكرة موت الأيديولوجيا بعد فشل الأيديولوجيا الشيوعية[٦] فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة.....(١٣)

كما أن الدعوة لنهاية الأيديولوجيا ليست بجديدة،فقد كان لهذه الدعوة صدى فى الأوساط الثقافية العالمية فى خمسينيات القرن الماضى وهى مستمرة إلى يومنا هذا،ولعل أفضل ما ينبغى النظر إليه هو تلك المنهجية التى تربط ما بين صعود عصر الثقافة،وبين نهاية الأيديولوجيا،والتى تربط أيضا بين نهاية عصر الصراع الطبقى ونهاية عصر الأيديولوجيا ،وكذلك بين نظرية نهاية التاريخ[٧] ونهاية عصر الأيديولوجيا،فقد طرح مستقبل الأيديولوجيا حديثاً على عدة مستويات وحقب تاريخية متباينة بدعوة وحجج ومبررات متباينة ،وقد صيغت هذه المسألة من خلال الدعوة إلى نهاية الأيديولوجيا أو التفريغ الأيديولوجى أو نهاية الأفكار أو نهاية التاريخ.(١٤)

والجدير بالذكر أنه كان لانهزام الأنظمة الاشتراكية أكبر الأثر فى ظهور فكرة موت الأيديولوجيا، والتى يمكن النظر إليها من خلال ما يلى :

أ. موت الأيديولوجيا مرتبط بالتحولات القائمة على مسرح الصراعات السياسية .

ب. موت الأيديولوجيا فكرة مصدرها جماعات تدعو إلى التخلى عن المثل والمبادىء المثالية التى هى أقرب إلى الأوهام منها إلى الحقيقة، أى الأخذ بالسياسة الواقعية.

---

[٤] مذهب سياسى ونظام أقامهما هتلر (ت١٩٤٥)،وتتصف بالتمجيد المفرط للفكرة القومية ،وتمثل نظام المانيا السياسى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ،(انظر يسرى دعبس:مرجع سابق،مادة النازية،ص٣٠٠).

[٥] تطلق على منظمة أسسها موسولينى عام ١٩١٩،وجاءت به إلى السلطة عام ١٩٢٢،وتحولت من مجرد كونها منظمة إلى أيديولوجيا ونظام حكم،وهى رد فعل لليبرالية ،والماركسية،والديمقراطية ،التى اذدهرت فى القرن ١٩ تأكيداً على حقوق الفرد ،(انظر محمد محمود ربيع،اسماعيل صبرى مقلد،موسوعة العلوم السياسية،مؤسسة الكويت للتقدم العلمى،الكويت،١٩٩٤،ص٤٠١).

[٦] حركة فكرية وسياسية تهدف إلى تحقيق مجتمع شيوعى يطبق بالاساليب الديمقراطية الحديثه،(انظر يسرى دعبس :مرجع سابق،مادة الشيوعية،ص٦٧).

(١٣) عماد أحمد :مرجع سابق،ص ص٢٥-٢٣.

[٧] يقصد بنهاية التاريخ ليس توقف استمرارية الأحداث، وإنما التجربة البشرية ضمن تطورها التاريخي في شكل الحكم والإدارة السياسية. ووصولها إلى الديموقراطية الليبرالية الحرة(انظر: The End of History and Francis Fukuyama :the Last Man,aldiplomacy,1992,p.2.

(١٤) عماد أحمد : المرجع السابق نفسه،،ص ص٣١-٣٢.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ج. جاءت هذه الفكرة لتقطع الطريق أمام التفكير فى تغيير النظام العالمى الراهن الذى يقوم على سيطرة الرأسمالية المتقدمة وأيديولوجيتها.(١٥)

ومما هو جدير بالذكرأن تراجع الأيديولوجيا أو القول بموتها يمثل أزمة فكرية على مستوى العقل يجب علينا التصدى لها ومجاوزتها ،فالأيديولوجيا لم تتراجع ولم تمت، فهى فرضية تم الإلحاح على صحتها بعد التطورات التى جرت فى الاتحاد السوفيتى السابق،فعلى العكس من ذلك باتت الأيديولوجيا أكثر وضوحاً وبروزاً،وإلا بماذا نفسر صعود بعض الأيديولوجيات المعاصرة كالصهيونية وما تحدثه فى العالم من تأثير.(١٦)

ليست الهزيمة مقياسا للفشل ، وإن كانت إحدى مؤشراته الدالة ، خاصة على صعيد المنظومات الفكرية والعقائد السياسية المتصارعة خارجياً بين الدول وداخلياً بين الطبقات. لقد اشتمل الصراع الدولى بعد الحرب العالمية الثانية على الصراع الفكري بين أيديولوجيات لا توفر لذاتها مساحة من النسبية لإتاحة المجال لنقدها من الداخل ، فهى منظومات مطلقة تؤخذ بكليتها على مستوى المعايير والمقولات،وعزّز الانقسام الاجتماعي والطبقي مقولات صراعية تطورت إلى ثقافات فرعية او أيديولوجيات كلية فكرياً وسياسياً، خاصة بهذه الطبقة أو الجماعة ، وما دام الانقسام والصراع قائماً ، فلا مجال للتوسط بين الأيديولوجيات التي تبادلت علاقات القوة بالحذف والإقصاء .(١٧)

كما تمثل «الأيديولوجيا» نسقا تراتبياً للأفكار، ينتظم فى هيكل واضح، وظيفته تفسير العالم، كما تمثل بنية رمزية معدة للاستخدام، تنطوى على صفتى الانتقائية والاختزال، التى تلعب من خلالهما دور الدرع الواقية ضد نزعات الشك والقلق الناتج عن تضارب المعاني، وتعدد المعايير وسيولة الأحداث، حيث تمد الفرد الذى يعتنقها بأجوبة مريحة وجاهزة عن الأسئلة التى يواجهها من دون عناء التفكير الدقيق، ومشقة البحث المضنى عن الحقيقة، عبر العمليات المعرفية المركبة والتحليلية المرهقة، حيث يسود التفكير الأيديولوجى تفسيراً أحادياً، أو ضيقاً، للتاريخ: اقتصادى أو ثقافي، أو دينى.. الخ.(١٨)

---

(١٥) ناصيف نصار:الأيديولوجيا على المحك..فصول جديدة فى تحليل الأيديولوجيا، دار الطليعة،بيروت،١٩٩٤،ص ص٣٢-٣٣.

(١٦) عبد الوهاب جعفر:مذاهب الأيديولوجيا والحضارة،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر،الإسكندرية،٢٠١٤،ص٩٩-١٠١.

(١٧) زهير توفيق:نهاية الأيديولوجيا مقولة أيديولوجيا،جريدة الدستور،العدد١٧٤٩٢،يناير٢٠٠٨.

(١٨) صلاح سالم:نهاية الايديولوجيا أم تحورها؟،جريدة الاهرام،العدد٤٧,٣٤،القاهرة،سبتمبر ٢٠١٥.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا شك فى أن هيمنة الواحدية والاجتزاء على حساب الحقيقة المركبة والمربكة فى آن، إنما يجعلان تلك الحقيقة قابلة للإدراك، سهلة التداول والاستخدام. وهكذا تعفى الأيديولوجيا معتنقها من تهمة الجهل، وتشعره بأنه يعرف، بل ويعرف كثيراً، بدليل امتلاكه تصوراً جاهزاً، وربما كاملا، للحقيقة،وتبقى دائما وأبدا أداة الشعوب.(١٩)

فالأيديولوجيا فى النهاية،وعلى اختلاف مفاهيمها واستخداماتها،هى جزء من البناء الذهنى للفرد والجماعة،طالما كان الإنسان أسيراً فى المكان ،ومكبلاً بقيود الزمان،فلا يستطيع الإنسان أن يفهم محيطه ،ولن يتمكن من التعامل مع هذا المحيط،إلا من خلال غطاء فكرى معين،وقد لا تتجاوز فكرته عن هذا الغطاء "الأيديولوجيا" باعتبارها المهيمنة فى النهاية ،فقد تكون الأيديولوجيا مجرد فكرة تعطى معنى للأشياء، أو قد تكون فكرة محورية تعطى معنى للأشياء المحيطة بها سواء لفرد أم لجماعة ،مما يجعلها أساساً لا يمكن أن يموت أو ينشأ بمنأى عن الفكر الإنسانى.(٢٠)

ومما هو جدير بالذكر أن التصورات الحديثة للأيديولوجيا قد ولدت حينما اكتشف نابليون أن هذه الجماعة من الفلاسفة تعارض طموحاته الإمبراطورية،فقد أطلق عليهم الأيديولوجيين،وبهذا اتخذت الأيديولوجيا معنى تحقيرياً واحتفظت به حتى اليوم ،فما الأمر سوى عدم صلاحية أفكار الخصم بالنسبة لما يشهده العالم من دائرة صراع سياسى.(٢١)

ومن ثم يتضح مما سبق أنه عندما تتجه الأيديولوجية إلى الظهور باعتباره موضوعا للتحقيق فيما بين الابعاد الاجتماعية والشخصية والسياسية والنفسية من صلة ،فإنها تبحث عن هيكل ومضمون, ووظائف ونظم المعتقدات الأيديولوجية،تلك الوظائف التى قد لا تنتهى ويترتب عليها بقاء الأيديولوجيا.(٢٢)

---

(١٩) صلاح سالم:المرجع السابق نفسه.

(٢٠) تركى الحمد:هل ماتت الأيديولوجيا؟..هل يمكن أن تموت؟،جريدة العرب الدولية،العدد٨٧٥٥،نوفمبر٢٠٠٢.

(٢١) كارل مانهايم:الأيديولوجيا واليوتوبيا..مقدمة فى سوسيولوجية المعرفة،ترجمة محمد رجا الديرينى،أكتوبر١٩٨٠،ص١٣٢.

(٢٢)John T. Jost ,Christopher M. Federico, and Jaime L. Napier :Political Ideology:
Its Structure, Functions, and Elective Affinities, Annual Review of Psychology, Volume 60, 2009,p307.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثالثاً:نموذج الأيديولوجية القومية[٨]:

يمكن القول بأن معظم المتشعبات والتفرعات الجديدة التي نمت من جذور أشكال الوعي الاجتماعي من خلال علاقات الإنسان في مراحل معينة من تطور المجتمعات البشرية، كل هذا مهد الطريق لخلق سيكولوجيات جديدة وبالتالي ظهور أيديولوجيات جديدة، علاوة على الأيديولوجيات الدينية، والأيديولوجيات المتمثلة بمصالح الطبقات الاجتماعية، فأخذ مفهوم الأيديولوجيا محتوىً جديداً، وهذا ما أدى بالضرورة إلى ظهور الأحزاب الأيديولوجية ، وخلال الفترة الممتدة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ظهرت الكثير من الأيديولوجيات (القومية، البرجوازية، الليبرالية، الديمقراطية، الاشتراكية، الشيوعية، الفاشية، النازية، وبرزت الأيديولوجيات الدينية من جديد..... الخ) لم يستطع البعض منها جزئيا استيعاب كل المفاهيم، في حين ظهرت أيديولوجيات كلية، استوعبت حركة التطور، وكانت لها نظرة شمولية وأسساً للتعامل مع جميع أشكال الوعي الاجتماعي بما يتفق مع تحقيق أهدافها.(٢٣)

فالقومية Nationalism ظاهرة أيديولوجية مركبة وعالية التنوع، فلا توجد فقط أشكال ثقافية وسياسية متمايزة للقومية ،بل إن التداعيات السياسية للقومية اتسمت باتساع نطاقها وتناقضها فى بعض الأحيان ،ومع أن القومية قد ارتبطت بمبدأ الإيمان بحق تقرير المصير القائم على افتراض المساواة بين الأمم،إلا أنها اُستخدمت للدفاع عن المؤسسات التقليدية والنظام الإجتماعى القائم ،وكذلك لإشعال مشروعات الحرب والغزو ،عندئذ ارتبطت القومية بتقاليد أيديولوجية متمايزة بدرجة واسعة تتراوح بين الليبرالية إلى الفاشية إن كل أيديولوجية برجوازية هي بالضرورة أيديولوجية قومية.(٢٤)

وعلى الرغم من من أن **القومية كانت** متأججة فى إيران وتركيا والعالم العربى، فقد رأى فيها البعض رد فعل طبيعى على زحف الشيوعية من ناحية،والزحف الاستعمارى العربى من ناحية أخرى ،ففى وقت من الأوقات تمت محاربة الجامعة العربية ،نظراً لاقتناع أعضائها بالقومية العربية،وعندما قيل بالأيديولوجيا القومية ،بدأ الأمريكان

---

[٨] القومية كنظرية سياسية وانثربولوجية ترى أن الإنسانية تنقسم إلى مجموعة من الأمم المتميزة ،وإن هناك محكات محددة لتحديد ماهية الأمة ،ولكل أمة الحق فى حكومة مستقلة تعبر عنها،(انظر محمد محمود ربيع،اسماعيل صبرى مقلد:مرجع سابق ،مادة القومية،،ص٤٠٥).

(٢٣) صلاح عبد العاطى:الانقسامات والتسامح فى المجتمع العربى،الحوار المتمدن،٢٠١٥.

(٢٤) صلاح عبد العاطى:المرجع السابق نفسه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يتعاملون مع الجامعة العربية كجهاز بيروقراطى يستفاد منه عندالضرورة فى تخفيف صياغة بيان سياسى، أو تشديد لهجة بيان يندد بالإرهاب، أو لتعريب مواقف غير عربية .

ومع ذلك لم تحقق الجامعة العربية للغرب هذه الرغبة ربما لأسباب قومية لا يريد أحد الاعتراف بوجودها ،ولكن لا تأتى السفن بما تشتهى سفينة دانيال بيل ،لاسيما فى روسيا بعدما جاء لينين(١٨٧٠-١٩٢٤م)،و أنعش القومية الروسية، وأعاد للكنيسة الأرثوذكسية دورها فى مجتمع ما قبل "البلشفية"أول ثورة شيوعية فى القرن العشرين،لأنه عرف أنه لا ينقذ روسيا من الغرق سوى وجود أيديولوجيا ما،ومادامت الشيوعية أظهرت عدم صلاحيتها، فلا سبيل سوى الاتجاه نحو الشعور الوطنى والقومية لإنقاذ روسيا.

ومن ثم فالأيديولوجيا رؤية للنفس وللعالم قد تمنح الشعوب فكرة الاستقرار، عندئذ نرى بصيصاً من الأمل يكمن فى أيديولوجيات العصر الكبرى، فمهمة الأيديولوجية القومية مهمة واضحة ولكنها شاقة ،وهى مهمة تتطلب عناصر من أهمها ما يلى:

١- وضوح الأيديولوجيا القومية بأبعادها المختلفة وضوحا قادراً على أن يجعل منها أفكاراً قوية تحرك الجماهير.

٢- رسم السبل المؤدية إلى بلوغ الأهداف التى تحددها الأيديولوجيا القومية .[٢٥]

والجدير بالذكر أن السنوات ما بين عامى١٨٥٢م،١٨٧٨ تعد بمثابة خطوة حاسمة نحو تحقيق الأهداف القومية ،لا عن طريق الثورات الشعبية والدعوات الأدبية ،ولكن عن طريق الحرب والدبلوماسيات والحكومات ،حيث كانت العوامل الاقتصادية وقتذاك تؤيد القومية بصورة متزايدة،فقد أدى النظام الرأسمالى إلى تغير الأوضاع الاجتماعية بين الأفراد، لاسيما فى أوساط أوروبا.[٢٦]

ومن نافلة القول إنه من أهم مقومات إحياء القومية تشديدها على التضامن بين الطبقات والطوائف المختلفة بين عديمى الملكية والرأسماليين ،وفقا للأيديولوجيا القومية ،فلا شك أن المبدأ الوحيد للإقصاء والإدماج السياسى يتبع حدود الأمة،أى تلك الفئة من الناس المعروفين بوصفهم أعضاءً فى الأيديولوجيا نفسها.[٢٧]

---

(٢٥) عبد الله عبد الدائم:الأيديولوجيا القومية العربية،تطورها ودورها وأفاقها،محاضرة فى عمان،٢٠/٥/١٩٩٠ص١٢.

(٢٦) هانس كهن:القومية معناها وتاريخها،ترجمة أمين محمود الشريف،الهيئة العامة لقصور الثقافة،القاهرة،٢٠١١،ص٧٦.

(٢٧) توماس هايلاند إريكس:العرقية والقومية.وجهات نظر أنثروبولوجية،ترجمة لاهاى عبد الحسين،المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ،عالم المعرفة،الكويت،٢٠١٢،ص١٥٧.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد بات واضحاً ضمن مقومات إحياء القومية تبنى فكرة تأسيس جماعة سياسية تضع برنامجاً إصلاحيا للنهوض بالوطن يربطها ببعضها البعض إيمان راسخ بالقضية القومية، ووعى تام بحقيقة الأوضاع التى آلت إليها البلاد فى فترة ما بين الحربين العالميتين.(٢٨)

كما يمكن فى إطار الحديث عن العقيدة والتراث القومى تناول قيم النزعة القومية فى المجتمعات العربية ،مما يسهم فى تأهيل المجتمع والتجاوب مع حاجات المجتمع ،فلا شك فى أن هذه النزعة تكتسب صفتها من فلسفة المجتمعات القومية ومن الحياة الواقعية أيضا،عندئذ تنحصر المشكلة فى اتجاهين:أحدهما خاص بالمتعلمين العرب، والأخرى تتمثل فى النظام التربوى ،وعلى هذا فعلينا توصيف المجتمع العربى المنشود الذى يجب أن يقوم على أساس المشاركة الشعبية والإيمان بالعقل ،وكذلك الانفتاح على الحضارات الإنسانية والمشاركة فى منجزاتها.(٢٩)

وخلاصة القول: "إن الدولة القومية دولة الدعوة إلى التقنية والتصنيع السريع،فضلاً عن أنها دولة البرجوازية الصغيرة[٩] الظافرة شيئاً فشيئاً،وجريا مع حركة التصنيع يترك الداعية إلى التقنية المجال إلى رجل التقنية الحق،أى المخطط،المهندس،رئيس المؤسسة الصناعية أو التجارية ،الذى يعرض أكثر من سابقيه عن الثرثرة ولغو الكلام،فقد تأتى الدولة القومية فى أعقاب تجارب كثيرة ،كثيراً ما أبانت عن العجز وانتهت بالفشل ،فلا إحياء دين الأسلاف، ولا الدستور، ولا المجهود التربوى استطاع أن يحقق للأمة ما تريده من قوة ومساواة مع الغرب،وعلى العكس من ذلك تشعر الدول باتساع الفجوة بينها وبين سائر العالم".(٣٠)

---

(٢٨) رؤف عباس:جماعة النهضة القومية،دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع،القاهرة،١٩٨٦،ص٤٢.

(٢٩) هانس كاهن:القومية العربية ،معناها وتاريخها،ص ١٧٧-١٨٠ .

[٩] هى طبقة أصحاب رؤوس الأموال والحرف, والتى تمتلك القدرة على الإنتاج والسيطرة على المجتمع ومؤسسات الدولة للمحافظة على امتيازاتها ومكانتها بحسب نظرية كارل ماركس. (انظر فيصل أورفاى:البرجوازية الصغيرة.هل تصبح الطبقة الإجتماعية الجديدة؟،الحوار المتمدت،العدد١٩٤١،،٢٠٠٧،ص ٣).

(٣٠) عبد الله العروى:الأيديولوجيا العربية المعاصرة،المركز الثقافى العربى ،الدار البيضاء،١٩٩٥،ص٧٣.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نتائج البحث:

جاء البحث بالعديد من النتائج يمكن إجمال أهمها فيما يلى:

١- تصديقا وتأييداً لما قاله الكاتب المصرى "جمال الغيطانى:"إن الأيديولوجيا لم تمت ولم تنته ،فعلى العكس من ذلك أصبحت أكثر ظهوراً وفاعليـــة ،ألـــم تكـــن الـــصهيونية أيديولوجيا باقية وقائمة؟،ألم يكن موقف الغرب مـــن الإســـلام والعـــرب والـــشرق متضمنا بعداً أيديولوجيا؟.

٢- بات واضحاً بصورة كبيرة ارتباط الأيديولوجيا بالمصلحة ،فالغرب الآن يتحرك وفقا لأيديولوجيا التعبير عن مصالحه.

٣- جاء المشهد التفتيتى للعالم ليسفر عن خرائط جديدة ،ورسم حدود جديدة ،ورفع أعلام جديدة ،وإن دل هذا فيدل على حاجة العالم الماسة للأيديولوجيا، لاسيما الأيـــديولوجيا القومية بما تحمله من أفكار وشعور وطنى وقومى بين الشعوب وبعضها البعض.

٤- الأيديولجيا التي كان نابليون ينعت بها أصحاب الفكر الجديد لم تمت وهـــي لازالـــت قائمة ولن تمت مادام الانسان يعتمد في حياته على نسق فكري مهما كان عتيقـــا أو موغلا في القدم .

٥- الأيديولوجيات السياسية العربية جميعاً تواجه، في صـــور متباينـــة، أزمـــة مركّبـــة، تنصرف إلى المضمون الداخلى لكل منها، وطريقة التعبير عنها، وكيفية ايصالها إلى جمهورها المعنى بالخطاب. يصدق هذا على الأيديولوجيـــة الـــسياسية الإســـلامية، بتنوعاتها المختلفة، وعلى الأيديولوجية الاشتراكية، كما يـــصدق علـــى أيديولوجيـــة القومية العربية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المصادر والمراجع:

أولاً:المصادر العربية المترجمة :

- كارل بوبر: بؤس الأيديولوجيا، ترجمة عبد الحميد صبره، دار الساقى، القاهرة، ١٩٩٢.
- كارل ماركس: الأيديولوجيا الألمانية ،ترجمة فؤاد أيوب،دار دمشق،١٩٦٤.
- كارل مانهيم: الأيديولوجيا واليوتوبيا.. مقدمة فى سوسيولوجية المعرفة، ترجمة محمد رجا الديرينى، أكتوبر ١٩٨٠.

ثانياً: المراجع العربية:

- أندرو هيود: مدخل إلى الأيديولوجيا السياسية، ترجمة محمد صفار، المركز القومى للترجمة، القاهرة، سلسلة العلوم الاجتماعية للباحثين، العدد١٨٣٠،٢٠١٢.
- توماس هايلاند إريكس: العرقية والقومية. وجهات نظر أنثروبولوجية، ترجمة لاهاى عبد الحسين، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠١٢.
- رؤوف عباس: جماعة النهضة القومية، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٦.
- عبد الله عبد الدائم: الأيديولوجيا القومية العربية، تطورها ودورها وآفاقها، محاضرة فى عمان، ١٩٩٠/٥/٢٠.
- عبد الوهاب جعفر: مذاهب الأيديولوجيا والحضارة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠١٤.
- نصيف نصار: الأيديولوجيا على المحك..فصول جديدة فى تحليل الأيديولوجيا، دار الطليعة، بيروت،١٩٩٤.

ثالثا: الدوريات العربية المتخصصة:

- عماد أحمد : مستقبل الايديولوجيا واليوتوبيا في الفكر السياسي الغربي الحديث، مجلة العلوم السياسية، العراق، العدد٤٣.
- تركى الحمد: هل ماتت الأيديولوجيا؟. هل يمكن أن تموت؟، جريدة العرب الدولية، العدد٨٧٥٥، نوفمبر٢٠٠٢.
- زهير توفيق: نهاية الأيديولوجيا مقولة أيديولوجية، جريدة الدستور، العدد١٧٤٩٢، يناير ٢٠٠٨.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- صلاح سالم: نهاية الأيديولوجيا أم تحورها؟، جريدة الأهرام، العدد٤٧٣٤، القاهرة، سبتمبر ٢٠١٥.
- فيصل أورفاى: البرجوازية الصغيرة. هل تصبح الطبقة الإجتماعية الجديدة؟، الحوار المتمدن، العدد١٩٤١، ٢٠٠٧.

رابعا: المراجع العربية المترجمة :

- أندرو هيود: مدخل إلى الأيديولوجيا السياسية ،ترجمة محمد صفار،المركز القومى للترجمة، القاهرة، سلسلة العلوم الاجتماعية للباحثين، العدد١٨٣٠، ٢٠١٢.
- توماس هايلاند إريكس: العرقية والقومية. وجهات نظر أنثروبولوجية، ترجمة لاهاى عبد الحسين، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠١٢،.
- هانس كهن: القومية معناها وتاريخها، ترجمة أمين محمود الشريف، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة،٢٠١١.

خامساً: المعاجم والموسوعات العربية :

- جلال الدين سعيد: معجم العلوم الاجتماعية والفلسفية، نيويورك ،١٩٤٤م.
- محمد محمود ربيع، اسماعيل صبرى مقلد: موسوعة العلوم السياسية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى، الكويت، ١٩٩٤.
- يسرى دعبس: معجم المصطلحات السياسية، مادة الأيديولوجيا، البيطاش سنتر للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠٠٩

سادساً: المصادر والمراجع الأجنبية:

§ Francis Fukuyama**:** The End of History and the Last Man**,** aldiplomacy,1992,.
§ Daniel i. o: political ideologies and the democratic ideal'neill, richard dagger, *university of richmond*.
§ Teun A. van Disk: Ideology A Multidisciplinary Approach, S AGE Publications,London,199**8.**
§ Andrew Heywood: Political Ideologies… An Introduction, , Thousand Oaks , London , New Delhi, 1998.
§ Malcalm Waters:Daniel Bell,Rautedge Taylar-French graup press, U.K,1996.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com